فى العصر العثمانى

هزل في عصر الظلام

بالرغم من أن مصر أصبحت فى هذا العصر ولاية عثمانية، وأن الظلام خيمً عليها فى كل شيء، فساءت أحوالها الاقتصادية والعلمية والأدبية، بالرغم من ذلك تظل لها طوابعها الفكاهية وقد تلمع فيها السخرية السياسية من حين إلى حين، فالجبرتى يروى أن أهل القاهرة غضبوا على وال عثمانى، فتجمعوا تحت قصره ينادون عليه معلنين غضبهم على بعض تصرفاته:

باشا ياباشا يا عين القمله   من قال لك تعمل دى العمله
باشا ياباشا يا عين الصِّيره   من قال لك تدبر دى التدبيره

وتجرى الفكاهة فى حياتهم رغم ما يجللها من بؤس وشقاء، بل

إنهم يحوِّلون البؤس والحرمان والجوع إلى فكاهة وهزل فى الأطعمة وألوانها ولبعضهم :

قالوا تحب المدمِّس قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار

وهناك شخص يسمى عامر الأنبوطى ، كان فكها ، ويروى عنه : أنه كان كلما سمع لشخص قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل وضروب الأطعمة المختلفة ، وكان علماء الأزهر يكرمونه ، خوفا من لسانه ، وأن يقلب أشعارهم صنوفا من الطعام . وبلغ من إتقانه لهذا الصنيع أنه نظم ألفية (ألف بيت) على غرار ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، ومن قوله فيها :

طعامنا الضَّانى لذيذٌ للنَّهِمْ   لحما وسَمْنا ثم خُبْزا فالتَقِمْ

ومنها :

والأصلُ فى الأخباز أن تقمَّرا   وجوَّزوا التقديد إذ لا ضررا
وامنعه حين يستوى الخرفان

وهو فى هذا ومثله يستخدم نفس ألفاظ ابن مالك ، ويحولها من النحو إلى الطعام ، ولا ريب فى أن ذلك كان يضحك الناس ، وخاصة من أكبّوا على حفظ ألفية ابن مالك ، إذ تفجأهم هذه الألعاب الهزلية بما يحفظون من صيغ ابن مالك وعباراته . ومن كلامه

على وزن لامية مشهورة فى الأدب العربى، تسمى لامية العجم، وكان العجم يفتخرون بها فى مقابل لامية أخرى تسمى لامية العرب، يقول معارضا لها:

طال التلهُّف للمطعوم واشتعلتْ
حُشاشتى بحمام البيت حين قُلِى
أريد أكلا نفيسا ستعين به
على العبادات والمطلوبِ من عملى
والدهرُ يفجع قلبى من مطاعمه
بالعدس والكِشْك والبِيصار والبصَلِ
ناديت هيا ولا تُبْطى بغَرفِك لى
فإنه خُلق الإنسان من عجَلِ

وهذا كله هزل ودعابة، يدليل على أن المصريين لم ينسوا حتى فى عصور الظلام ما طُبعوا عليه من التندر والفكاهة.

هزّ القحوف:

هو كتاب طريف أُلفَّ فى هذا العصر لغرض تصوير أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ألفه شخص يسمى يوسف الشربينى، وكان عالما واعظا، ونظر من حوله، فرأى السواد الذى كان يغطى أودية مصر فى ذلك العصر، ورأى معه

تعاسة أهل الريف، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم. والشادوف آلة معروفة يُسْقَى بها الزرع، وقد يسمى أهل الريف المصرى شخصا باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه. ومن ثم سمي يوسف الشربينى قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف، وهى قصيدة من بحر الطويل، ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية، فهى عامية خالصة، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله فى حقله، إلى صلته بالحكومة فى عهده، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من السخرية والهزل.

ولم يكتف يوسف الشربينى فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجدية، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب «هز القحوف». وهو يتقدم هذا الشرح بقوله:

«ان مما مرَّ عليَّ من نظم شعر الأرياف، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف، قصيد أبي شادوف، فوجدته قصيدا ياله من قصيد، كأنه عُمل من حديد، أو رُصَّ من قحوف الجريد، فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته، ولا يمكننى إلا طاعته، أن أضع عليه شرحا يحل ألفاظه السخيمة، ويبين معانيه الذميمة، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف! وياله من

شرح لو وُضع على الجبل لتدكدك ، ولو نُقش على عمود الصوارى لتحرك . وقد سميت هذا لشرح «هز القحوف بشرح قصيد أبى شادوف» وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة ، الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار يحاكى كلام ابن سودون ، فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ، لأن النفوس الآن متشوقة إلى شىء يسليها عن الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم» .

وليست هذه الهموم والغموم التى يشير إليها الشربينى إلا ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب . ودائما نجد مصر حين يجثم على أنفاسها كابوس دولة أجنبية تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما يصنع الآن يوسف الشربينى . وهو لا يتخذ من شخصية بعض العثمنيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية ، فقد كان الحكم العثمانى قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير . ومن أجل ذلك ارتد الشربينى إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل فى أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وصور أثناء ذلك ظلم الكشاف (المدير) والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه «العونة» وكيف كان الملتزمون يسخرون أهل الريف فى زراعة أراضيهم بدون

أجر . والكتاب لذلك يعد وثيقة مهمة فى تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه .

وقسم الشربينى شرحه : «هز القحوف» إلى جزآين كبيرين : جزء خصه بتصوير حياة أهل الريف وبيان ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصه بشرح قصيدة أبى شادوف . ونراه يقول فى مفتتح الجزء الأول إن أهل الريف «ليس لهم انضباط ، وأحوالهم شياط وعياط ، ووِرْدُهم عند الأسحار ، التفكر فى الغنم والأبقار ، وتسبيحهم فى الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف» . وتعرض بعد ذلك لغرابة أسمائهم وكُناهم ، ثم وصف حفلة عرس من أعراسهم ، وروى فيها عن بعض شعرائهم :

ياعروسه يا ام غالى	انْجلى ولا تبالى
انجلى يا وجه بومه	زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه	وجه ضَبْعه فى الرمال

ثم يصور الشربينى ما كان عليه أهل ريف عصره من بؤس وفقر ، فمن ذلك أن شخصا منهم رأى فى القاهرة سمك (البساريا) فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها . ويستطرد الشربينى إلى ذكر فكاهاتهم ونوادرهم فيروى أن رجلا منهم اشتكى شخصا إلى القاضى ، وكان سبب الشكوى أنه نزل حقله بدون أذنه ، وأخذ منه برسيما لدابته ، فأحضر القاضى المتهم وسأله ، فاعترف ، إلا أنه

اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا ، فسأل القاضى المدعى كيف تضربه ؟ فرد عليه قائلا : « أتابيك ياقاضى تور ، وأنت إذا نزلت غيطى يا هل ترى أضربك ، داأنا أكسر قرنك ولا أخليك تطلع سالم » .

ويضع الشربينى على أهل الريف نوادر يدل بها دلالة بينة على الجهل الذى كان سائدا حينذاك . ومما وضعه أن رجلا منهم سأل آخر : « إيش هجاؤك بربق ؟ فأجابه : ب ، ر ، ب ، ق ، واو ، فقال له : إيش عرفك أن فيها واوا ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو ، فقال له : إن عشت تبقى فصيحا لأخوالك ! »

ويتسع الشربينى بوضع النوادر على فقهاء الريف مما يصور جهلهم الشديد . فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى » ما معنى أقلعى ؟ فقال الفقيه : « أى سيرى مثل المراكب المقلعة ! » . ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى القاهرة ، وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ! وهو مذهب معروف فى الفقه الإسلامى لا فى نحو اللغة وقواعدها .

ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يمعن فى الضحك ، واقرأ له من خطبة :

« اعلموا ياأهل بلدنا أن عندكم قمح كثير ، وتبن وشعير ، وأنتم فى خير من رب العالمين ، فأنتم تفيقوا لزرع الوسية (أرض الملتزم)

وإلا صبَّحكم الكاشف بداهية وبلية ، وغدا تسرحوا للعونة والسخرة ، وفيقوا « انتبهوا » للغنم والبقر ، وافحتو أبياركم ، وفيقوا لدوركم وجداركم ، وأكرموا الخطار بالعدس والبيصار ، تنجوا من عذاب النار. على ايش ياحبايب تهجرونا بلا سبب ، الله الله! قولوا لا اله إلا الله ، من وحَّد الله ما خيَّبه الله ، آمين والحمد لله رب العالمين »

والخطبة كما ترى عامية ، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم « العدس والبيصار » كما أن فيها ما يدل على بطش الكاشف وما عُرف به العصر العثمانى من العونة أو السخرة ونحن لا نصل إلى قوله : « على ايش ياحبايب » حتى نفزع إلى الضحك على هذا الخلط فى خطبة الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى ، فإذا هى تخرج إلى هذا الهذر والهزل.

وأساس الفكاهات فى الكتاب المفارقة فى المنطق ، فالحقائق تنقلب صورها أمامنا وتنعكس ، وكان ابن سودون على مامر بنا فى غير هذا الموضع يقيم فكاهته على هذا الأساس ، ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى صنع فكاهاته ، وقد ذكره وأشاد به غير مرة فى كتابه . ونقل عنه الخطاب السابق الذى كتبه أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة ، وأضاف إليه خطابا أرسله بعض فقهاء الريف إلى صديق له فى بولاق ، وهو يجرى على هذا النمط :

« السلام من الفقى أبو على اللى اسمه محمد على حضرة

صاحبنا اللى يطالع زى مايطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، وياما له علينا شهامة ، اللى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زىّ قصة الجارية تودد والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ، ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وأنا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولاحمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة رأسك ما عوقنى إلا سرموجتى مقطعة . وأنا أقول لك شوف لى كتاب كنت شفته من زمان وسمعت به . آه عليه ! وياما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشيع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ! الله ، الله لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد . وكتب عنوانه : « توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار ، ويوصلها لبولاق ، وواحد يوصلها لسوق الكتب اللى يقولوا فيه : حراج حراج »

وفى هذا الخطاب غفلة واضحة ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة .

وما يزال الشربينى يعرض علينا نوادر عن أهل الريف مازجا لها

ببعض النوادر القديمة التى قصها الرواة عن جحا وأبى نواس وغيرهما .

ويخرج الشربيني من هذا الجزء الذى اعتبره كالمقدمة لكتابه إلى الجزء الثانى الذى عُنى فيه بشرح قصيدته التى أشرنا إليها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التى قيلت فى هذا النسب على نحو مايصنع شراح القصائد الجدية . ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة فى اسمها ، ويستدل لكل اسم بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة . ثم يتركها إلى الكلام عن أسرته وخاصة أباه البائس الذى كان يملك حمارا أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير .

ومازال يتكلم عن أبى شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل مايريد من التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، ويقف عند كل بيت من أبياتها ، فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد فى هذا الشرح على معجم لغوى يسميه « القاموس الأزرق والناموس الأبلق » .

والقصيدة ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف والطريف حقا شرحه لها وماساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف فى عصره وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ومجتمعاتهم ومجالسهم وكيف كان العثمانيون يظلمونهم ، وينهبون طيبات أرضهم ، وكيف ساموهم

سوء العذاب . وكأن مصر بقرة حلوب فهم يعتصرونها ، ولايبقون لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلا وطبيعى أن تفسد حياة المصريين وأن تتحول إلى هذه الصورة البائسة من الجهل والفقر . والشربينى يعرض علينا ذلك بفكاهاته ونوادره .

وفى هذا الجزء الثانى من كتابه خطبتان صاغهما على نسق خطبتى الجمعة الطويلة والقصيرة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات التى كان يحرم منها الشعب المصرى فى عصره ، ولا يعرف أكثرها إلا سماعا ، وهو يستهل القصيرة على هذا النمط :

« الحمد لله مزيل الحـزَنْ ..واعلموا أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن ، واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، وللأربعة الأعيان : التين والزيتون والخوخ والرمان .. والستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة : الماوردية ، والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا الله وأياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء اسكر النبات ، مَنْ أصله من

القصب الملوانى . اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من أول النهار وفى وسطه وآخره ، اللهم وأهلك الثلاثة الفجر : العدس والبسلّة والبيصار . واقتدوا بسنة خير الآنام ، ولاتتضاربوا ولاتتخابطوا ، وكونوا عباد الله أخوانا » .

وعلى هذا النحو من الهزل تناول الشيخ الشربينى هذا الموضوع الجاد الصارم ، موضوع خطبة الجمعة ، وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى وتقريع ودعاء بهذه الطريقةالهزلية وما تحمل من لذع ساخر بما تصور من بؤس المصريين فى العصر العثمانى بؤسا لا يدانيه بؤس . وتعمّد أن يجلب بعض الصيغ التى تعود الخطباء فى صلاة الجمعة أن يذكروها ولكن بعد أن حولها على طريقته الفكهة ، وما من ريب فى أن هذا كله فكاهة لما يحمل من مفارقة للمنطق والمألوف . والحق أن الشربينى كان من أعاجيب زمانه فى الهزل والسخرية والهذر والتندير .